مقياس: تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط

الدكتورة: شلوف حاضرة محمد خيضر بسكرة

العمران في الفكر الإسلامي

أولا وقبل كل شيء لابد من القول أن العمران في الفكر الإسلامي يتجلى في ما يسمى بالمدينة، وعند البحث في كتب اللغة فإن كلمة مدينة مشتقة من كلمة " دين " وهو معناه في اللغة العربية والأرمية، أي أنها ذات أصل سامي، وعند الأكاديين والآثوريين عرفت المدينة بالدين أي " القانون ".
من مشتقات الكلمة أيضا الديان بمعنى القاضي في اللغة الآرامية والعبرية ومن مصادرها أيضا في اللغة الآرامية " مدينتا " بمعنى القضاء، بمعنى مركز الحكم وهذا يتوافق مع ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية وما أشار له الصحابة، ففي القرآن الكريم وردت في الكثير من المواضع بمعنى المكان الذي تتوفر فيه السلطة الدينية والقضائية والإدارية والسياسية مثل ما جاء في سورة الأعراف الآية (123)، سورة التوبة الآيتين (101) و(120)، سورة يوسف الآية (30)، سورة الحجر الآية (67)... كما ميزت المدينة عن القرية في القرآن الكريم بوجود سلطة التقاضي.
وفي الحديث النبوي وردت كلمة " الديان " التي هي من مشتقات كلمة مدينة بمعنى الملك أو الحاكم في قوله: « يوم يَحشُرُ اللهُ العبادَ حفاة عُراةً عزلا ليس معهم شيءٌ، ثم يناديهم بصوتٍ يسمعُه من بَعُدَ كما يسمعُه من قَرُبَ أنَا المَلِكُ أنَا الدَّيَّانُ لا ينبغي لأحدٍ من أهلِ الجنةِ ولا لأحدٍ من أهلِ النارِ عليه مظلَمَةٍ حتى أقصه منه...» عن جابر بن عبد الله (صحيح البخاري).
وهناك من يذهب إلى أن كل مكان فيه أمن وسور هو مدينة والباحث لوفاقون يرى أن المدينة هي التي فيها تقسيم للعمل الحلاقة، الخياطة، الحدادة... ويرى أن تقدم المدينة يكون إذا اشتهر أحد بصناعة معينة حدادة، نسيج...

التفسير الفقهي للمدينة:

نجد التفسير الفقهي للمدينة لا يخرج عن المعنى اللغوي لكلمة " دين " التي هي عن مشتقات المدينة بمعنى (الدين والملك والقضاء)، حيث يرى أبا حنيفة أن صلاة الجمعة إنما تختص بها الأمصار دون غيرها (أي المدينة الكبيرة) أين يوجد سلطان يقيم الحدود وقاضي ينفذ الأحكام، ولا يجوز إقامتها في القرى وهذا حسب أو إنطلاقا مما جاء في الحديث النبوي في قوله صلى الله عليه وسلم "لا جمعة ولا تشريق ولا فطر ولا أضحى إلا في مصر جامع" وفي حديث أخر"إلا في مصر جامع أو مدينة عظيمة" والمصر حسب الفقهاء هو "وطن مجتمع المنازل" والمصر حسب الجغرافي المقدسي هو: " كل بلد جامع تقام فيه الحدود ويحله أمير ويقوم بنفقة ويجمع خراجه ".

التفسير الاجتماعي للمدينة:

في هذا الصدد يرى القزويني (آثار البلاد وأخبار العباد) أن نشأة المدينة تكون " عند حصول الهيئة الاجتماعية لو إجتمعوا (البشر) في صحراء لتأذوا بالحر والبرد والمطر والريح، ولو تستروا في الخيام والخرقات لم يَؤمنوا مكر اللصوص والعدو ولو اقتصروا على الحيطان والأبواب، لما ترى في القرى التي لا سور لها لم يأمن صولة بأس فأكرمهم الله تعالى باتخاذ السور والخندق والفصل، فحدثت المدن والأمصار والقرى والديار... واتخذوا المدن سورًا حصينا وللسور أبوابا عدّة حتى لا يتزاحم الناس بالدخول والخروج... واتخذوا لهذا المكان ملك المدينة النادي لاجتماع الناس فيه، وفي البلاد الإسلامية المساجد والجوامع والأسواق والحانات والحمامات ومراكض الخيل ومعاضن الإبل ومرابض الغنم وتركوا باقي مساكنها لدور السكان، فأكثر ما بناها الملوك على هذه الهيئة، فنرى أهلها موصوفين بالأمزجة الصحيحة والصورة الحسنة... والعقول الوافرة واعتبر ذلك بمن مسكنه لا يكون كذلك مثل الديالم والجيل والأكراد... ثم اختصت كل مدينة لاختلاف تربتها وهوائها بخاصية عجيبة وأوجد الحكماء فيها طلسمات غريبة، ونشأ فيها صنف من المعادن والنبات والحيوان لم يوجد في غيرها وأحدث فيها أهلها عمارات عجيبة ونشأ فيها أناس فاقوا أمثالهم في العلوم والأخلاق والصناعات...".

بمعنى أن المدينة- لا تقام إلا عند وجود هيئة اجتماعية- تميزها عن غيرها بسور- ضرورة وجود سلطة (ملك، حاكم، سلطان) ومقرها- منشآت وتكوينات تختلف حسب اختلاف المجتمعات (ما بين المدينة الإسلامية والمسيحية)، سيمة التحضر لساكنيها- واختلاف نشاط سكانها حسب الثورات المتوفرة فيه (طبيعة الأرض والمناخ).
كما يرى قدامه بن جعفر في كتابه الخراج وصناعة الكتابة أن نشأة المدينة تكون مرتبطة بحاجات الإنسان التي هي تختلف من شخص إلى آخر لاختلاف طبيعة النفوس كما يشير إلى تركيب الطبقات الاجتماعية في مجتمع المدينة والي تقسيم العمل (أي وجود الفلاح، الحداد، النجار، البناء والاسكافي، الطبيب، المهندس...) لأنه لا يمكن لفرد واحد التخصص في هذه الأعمال جميعها، في هذا الصدد يمكن القول أن المدن تتنوع باختلاف وظائفها وظروف نشأتها ومواقعها ومواضعها والمؤثرات التي تؤثر على نموها وتطورها.
فمثلاً مدينة البصرة والفسطاط أسست كقواعد عسكرية لاستراحة الجيوش في الفتوحات الإسلامية ثم استوطنها السكان، كذلك برقة والقيروان ومدن أنشأت من أجل التجارة في القرون الوسطى (استبدال الذهب بالملح) ورجلان، سجلماسة في القرون الوسطى، ومدن أنشأت لتكون مركز سلطة وفي مكان النمو باختيار مكان معين مثل قلعة بن حماد بالمسيلة.

منهج الفكر العمراني الاسلامي:
تميز الفكر العمراني الإسلامي بالشمولية في مبادئه العامة والتخصيص في جزئيات التطبيق انطلاقا من عرض السياسة العامة لعمران الدولة ثم ينتقل إلى تخطيط المدن وتوزيع الأحياء والمساكن والحرف والصناعات، وما تجدر الإشارة إليه أن العمارة تتحكم فيها عدة عوامل، منها ما يرتبط بالضوابط الشرعية ومنها ما له علاقة بالمستلزمات والروابط الإجتماعية، ومنها ما تكون له دوافع ذاتية وفطرية وتتجلى مظاهر هذه العوامل في تخطيط المدن والشوارع والمرافق العامة وفي نمط العلاقات الإنسانية المؤسسة على التعاون والتضامن وحسن الجوار وغيرها، كما تلعب الظروف الطبيعية والإقتصادية والأمنية دورا كبيرا في تشكيل المرافق المعمارية بالمدينة الإسلامية في إمتدادها بما يتوافق وتخطيط المباني من حيث التجاور أو التلاصق أو الإرتفاع، ومن حيث توزيع وسائل التهوية والإضاءة والإطلال بما يوفر الوقاية ويمنع كشف حرمات البيوت، وحاولت الأحكام الفقهية مسايرة تطور حركة العمران بالإعتماد على مبدأ منع "ضرر الكشف" وهذا ما نجده في الكثير من المصادر العمرانية الإسلامية المتنوعة بين مصادر فقهية وأخرى تاريخية وجغرافية منها: الإعلان بوهم البنيات لابن رامي وكتاب الجدار لعيسى بن موسى التيطلي وكتاب البنيان لعبد الله ابن عبد الحكم، فتح الرحمان في مسألة التنازع في الحيطان لمحمد بن حسين بن إبراهيم البارودي ونوازل الونشريسي المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب، والخطيب البغدادي تاريخ بغداد، ابن عساكر تاريخ دمشق، الفيروز آبادي القاموس المحيط، سلوك المالك في تدبير الممالك على التمام والكمال لشهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع، والأحكام السلطانية للماوردي وكذلك كتاب تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك، ومقدمة ابن خلدون وكتاب بدائع السلك في طبائع الملك لابن الزرق...
فإبن أبي الربيع يتعرض للشروط الأساسية التي يجب أن تتوفر عند تأسيس المدن وفي اختيار مواقعها وهي ستة (06) شروط:

- سعة المياه المستعذبة.
- إمكانية الميرة المستمدة.
- اعتدال المكان وجودة الهواء.
- القرب من المرعي والاحتطاب.
- تحصين منازلها من الأعداء والذعار.
- يحيط بها سور يعين أهلها.

فبالنسبة للشرط الأول وهو ضرورة توفير المياه فعليها تقوم الحياة لقوله عز وجل: ﴿ ***وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ*** ﴾ وهي تتوفر من الأنهار الدائمة الجريان أو الوديان المؤقتة الجريان والمدن التي تؤسس على الأنهار فإنها تمتاز بسعة المياه أي بماء يسد حاجة سكانها وما يزيد، وفي ذلك مراعاة لنظرة مستقبلية عندما تتسع المدينة ويكثر سكانها مثل القاهرة التي أقيمت على النيل ومدينة فاس على نهر وادي فاس ومراكش وادي تانسيفت مع ضرورة أن يكون عذب ومستصاغ الذوق، فمثلاً قلة مياه البصرة حالت من نموها وتطورها وضحالة ماء القيروان، يستلزم المصاريف الكثيرة لجلب المياه المستعذبة.

الدكتورة: شلوف خامسة محمد حبضر بسكرة

الشرط الثاني إمكانية الميرة المستمدة (المستوردة) إمكانية توفر الغذاء شرط أساسي لنشأة المدينة (فمثلاً مدينة بترولية في القطب الشمالي الحياة فيها صعبة لصعوبة جلب المواد) كذلك مكة في قلب الصحراء استيراد القمح من الشام مما يؤدي إلى تضاعف سعره مدينة ورقلة في الجزائر فهذه المدن تصلها المؤونة بصعوبة سابقا.
لذلك لنشأة المدينة واستمرارها يمكن توفير الغذاء بطرق مختلفة كأن تعتمد المدن على مواد تنتجها أرضها كدار حمزة (البويرة)، المحمدية (المسيلة) وفاس واغلب المدن الصغيرة والمتوسطة أو التي تعتمد على التجارة كالقيروان (كاستيراد الزيت من صفاقس) من الأقاليم البعيدة لكثرة سكانها وتيسر أحوالهم والصناعات التي تنتجها والتي تستبدل بضاعتها كمدينة الوادي سابقا، بسكرة وتمنراست.
لذلك عند دراسة المدينة يجب التطرق إلى إقليمها لأن هناك تفاعل بين المدينة والريف متكون من ردود الأفعال والأفعال لذلك تخطيط المدن مرتبط ارتباط وثيقًا بريفها (يزودها بالماء والمواد الأولية والمعيشية) فالمدينة لا تنمو ولا تستطيع العيش أو تكتفي ذاتيا إلا بريفها والريف أيضا يحتاج إلى المدينة، ومن المدن التي ازدهرت مرتكزة على أقاليمها بغداد، القاهرة، تلمسان، تهرت، كما أن التجارة عامل منهم في نشأة المدن وأهميتها.
ومن هنا برزت أهمية تأسيس المدن في نقاط التقاء الطرق التجارية وعلى مسار هذه الطرق، فالخليفة المنصور العباسي عندما فكر في اختيار موقع بغداد وضع نصب عينه أهمية الطرق المؤدية لها وتفهم أثرها الخطير.
الشرط الثالث اعتدال المكان وجودة الهواء أي المكان منبسط والهواء غير موبوء، أي أهمية المناخ في نمو المدن، وتفاعل الإنسان ببيئته، ولما كان المناخ وأثره واختيار الموقع يدل على مظهر حضاري فلقد استفاد الحكام في هذه الأمم من العلماء والحكماء في اختيار أفضل ناحية في المنطقة وأفضل مكان في الناحية ومعرفة مهب الريح لأنها تفيد صحة أبدان أهلها وحسن أمزجتهم، وقد فهم المسلمين مدى الترابط الموجود بين المناخ الحسن وصحة البنية والذوق نستدل على ذلك مما جاء به القزويني حول مدينة أصفهان في قوله: " إنما مدينة عظيمة من أعلى المدن ومشاهرها جامعة الاشتداد والأوصاف الحميدة من طيبة التربة وصحة الهواء وعذوبة الماء وصفاء الجو وصحة الأبدان...".
ولقد حدد البلدانيون المسلمون مقاييس لمعرفة طيب الهواء وصحته، وفي ذلك قال القزويني عن صنعاء "لحم يبقى فيها أسبوع لا يفسد، وكانوا يعلمون بهذه الطريقة عن المكان لوضع المدن والبمارستانات"، وذكر عن طليطلة "أنها من طيب تربتها تبقى الغلاة في مطامير ها سبعون سنة لا تتغير".
كان من مسائل اختيار جودة الهواء المبيت ليلة أو أكثر في المكان في أوقات مختلفة كما يسألون أهل المكان عن الهواء وينظرون إلى الرياح الموسمية واتجاهها عند بناءهم المدن حتى تبعد الروائح، ولقد ربط البلدانيون المسلمين بين الهواء والصحة، وعن صحة المكان وقلة أوبئته نجد القزويني يصف صنعاء بقوله: " قليلة الآفات والعلل، قليلة الذباب والهيام إذا اعتل الإنسان في غيرها ونقل إليها صح ".
لقد أثر المناخ تأثيرًا مباشرًا في تخطيط المدن الإسلامية فتلاصقت مبانيها وتدرجت مقاييس شوارعها (ضاقت) والتواء الشوارع لتكسير الهواء (وحتى الحشمة مثل غرداية) وأصبح الفناء عنصرًا أساسيا في تخطيط المدن، وأخذت الواجهات والمضلات والعناصر المعمارية الأخرى كالنوافذ وأماكن الإنارة خاصة وأن معظم المدن الإسلامية تقع في المناطق الجافة والحارة.
الشرط الرابع بسبب أهمية الحيوانات في الحياة من غذاء وصناعة أي الإنتاج الحيواني والاحتطاب أي الغابة لتوفير الخشب كوقود، وأن لا تكون المدينة بعيدة عن مكان الحطب المكلف وهو الآن ثروة.
الشرط الخامس التحصين بمعنى مادي الخندق والصور والفيصل وبشري بأن تكون هناك حماية بشرية قوية لابد من نظام يسيرها (مثل: إمارة بني جلاب) توقرت.
الشرط السادس يحيط بها سور ليحدد الريف الخارجي، وداخل السور الحضر لأن أصل المدينة يدفعون ضرائب والريفيين عند دخولهم المدينة يدفعون مبلغ معين ويسأل عن اتجاهه ولا يكون كل السكان داخل المدينة لأنه إذا كان هناك حصار المواد الغذائية تنفذ وبالتالي يجب الاستعانة بأهل الريف.
كما يحدد ابن أبي الربيع أيضا ثمانية شروط يجب مراعاتها عند تخطيط موضع المدينة وهي:
*أن يسوق إليها الماء العذب ليشرب أهلها ويسهل تناوله من غير عسف.
*أن يقدر طرقها وشوارعها حتى تتناسب ولا تضيق.
*أن يبني جامعًا للصلاة في وسطها ليتعرف على جميع أهلها.
*أن يقدر أسواقها بحسب كفايتها لينال سكانها حوائجهم عن قرب.
*أن تميز بين قبائل ساكنيها بألا يجمع أضدادًا مختلفة متباينة.
*إن أراد سكناها فليسكن أفسح أطرافها ويجعل خواصه محيطين به من سائر جهاته.
*أن يحيطها بسور مخافة اغتيال الأعداء لأنها بجملتها دار واحدة.

الدكتورة: شلوف خلفوة محمد لحضر بسكرة

*أن ينقل إليها من أهل العلم والصنائع بقدر الحاجة لسكانها حتى يكتفوا ويستغنوا بهم عن الخروج إلى غيرها.

بالنسبة للشرط الأول فيشمل في توفير الماء بأي شكل من الأشكال إما عن طريق شبكات توصيل قنوات أو أنابيب أو حفر جداول أو نقلها على ظهور الدواب لكن يجب أن يتوفر.
الشرط الثاني أن يقدر طرقها وشوارعها حتى تتناسب ولا تضيق وهذا حتى تتناسب مع حركة المرور وكثافتها لذلك كانت هناك شوارع رئيسية وأخرى فرعية مع سكك وأزقة تنوعت بين طرق نافذة وغير نافذة وخاصة، كما أن هذه الطرق تتحكم فيها تكوينات المدينة المسجد الجامع ودار الإمارة.
أن يبنى جامعًا للصلاة لأنه من التكوينات الأساسية للمدينة الإسلامية فمثلاً في فاس بني مسجد جامع في عدوة القرويين وآخر في عدوة الأندلسيين وغالبا ما يتوسطها للوظيفة التي يؤديها.
الشرط الرابع أن يقدر أسواقها لينال حوائجهم عن قرب، لأنها من المرافق الأساسية في المدينة ولقد حرص ***الرسول صل الله عليه وسلم*** على إنشائها وتنظيمها، ولارتباطها بالتجارة والصناعة والزراعة فقد خطت الأسواق بطريقة تتلاءم مع النشاط التجاري والصناعي وبشكل يسهل مراقبة أهل التجارة والحرف فظهرت أحياء الصاغة والنحاسين والحدادين، كما أن تنويعها حكمته القواعد الإسلامية في إطار منع الضرر بتسهيل حركة المرور في شوارع المدينة، ولتحقيق أمن القصر المدينة الملكية ثم عزل الأنشطة التجارية، فأنشأت المدينة العامة للأنشطة التجارية ولتستوعب كثافتها مثل إنشاء مدينة الكرخ بجوار بغداد وزويلة بجانب المهدية، وفي إطار التبادل التجاري الخارجي أنشأت الفنادق الخاصة بالتجار.
خامسا أن يميز بين قبائل ساكنيها بألا يجمع أضدادًا مختلفة متباينة وهذا بسبب وجود العديد من الأجناس البشرية المختلفة العرب والفرس والأتراك، وهذا ما قام به ***الرسول صل الله عليه وسلم*** في تخطيط المدينة المنورة وبتجميع أفراد القبيلة الواحدة في مكان واحد، وفي هذا الإطار يذكر الماوردي في وصفه البصرة:" أنهم جعلوا المدينة خطط بحسب القبائل لكل قبيلة خطة...، ووسط كل خطة رحبة فسيحة لمرابط خيولهم وقبورهم وموتاهم وتلاصقوا في المنازل".
سادسا إذا أراد سكناها فليسكن أفسح أطرافها ويجعل حواصله محيطين به من سائر جهاته، فكانت هذه المدن العواصم وبها مقر الحكم ونفس الشيء حدث توسع الفتوحات وتنصيب الولاة فكانت دار الإمارة أو الملك مجاورة للمسجد الجامع وهذا ما نلاحظه في بغداد ووضع المسجد الجامع بجانب قصر الذهب وبجانبه الدواوين ليحيط بها سور يفصلها عن منطقة سكن القادة والموالين للخليفة ثم يأتي سور يتصل بسور خارجي ثم الخندق، في خارج أسوار المدينة نجد عامة الناس وهذا حتى لا تتسبب مواكبه ورجاله في أذى العامة والمارة ولا يتعرض للأذى من أهل الفتنة أو الثائرين كما يساعد أعوانه في حمايته.
سابعا أن يحيطها بسور خوف اغتيال الأعداء إياها فهي بجملتها دار واحدة وذلك سواء بتأمينها طبيعيا كوقوعها على حافة نهر أو استدارة بحر أو في مكان مرتفع، وإن لم يكن ذلك فيكون تأمين اصطناعي من خلال حفر خندق وهذا ما فعله ***رسول الله صل الله عليه وسلم*** في شمال المدينة المنورة، أو وضع سور به أبواب يربطها بأطراف ويكون هناك الفيصل الذي يفصل تكوينات المدينة عن سورها لاستعماله في حالة الدفاع عنها، والسور مرتبط بمساحة المدينة فهو يحيط بالتكوينات الأساسية أما الحدائق الواسعة والأسواق الأسبوعية وأماكن أداء صلاة العيد والمصارة (أماكن عرض الجند) والمقبرة فإنشاؤها يكون خارج المدينة، وحتى داخل المدينة فيتم تقسيمها إلى أحياء وحارات لها أبواب خاصة تفصل بين الحارة والأخرى وتؤمنها من خطر اللصوص.
آخر شرط أن ينقل إليها من أهل العلم والصنائع بقدر حاجة سكانها، حتى يكتفوا بهم ويستغنوا عن الخروج الى غيرها، وهذا ما يحدث في كل المدن الإسلامية بحيث عمل حكامها على توفير كل ما تحتاجه من صناعات من أهل العلم فالحجاج عند إنشائه واسط جلب إليها أهل العلم والصناعات والتجار ومنحهم أماكن لنشاطاتهم المختلفة، ونفس الشئ حدث في مراكش على عهد المرابطين مع تنظيمها في إطار قانوني يحرص على تنفيذها مختلف المؤسسات في المدينة كالسلطة الإدارية والقضائية وأجهزة الأمن والمراقبة والشرطة والمحتسب.
يؤكد على مثل هذه الأفكار كل من ابن الأزرق وابن خلدون حيث يرى ابن الأزرق أنه عند تخطيط المدن يجب مراعاة شرطان أساسيات وهم دفع المضار وجلب المنافع ويذكر أن المضار نوعان أرضية دفعها يكون بإقامة سور وحصانة طبيعية والثاني سماوي يكون باختيار المواضيع ذات الهواء الطيب الغير ملوث أو المتعفن مثل ما كان الحال بقابس على حد ذكر ابن خلدون وجلب المنافع يتمثل في توفير الماء العذب والمرعى والمزارع والغابات وقربه من البحر.

الدكتورة شادية حلمي محمد حضر سكرتارية